حضارة ما بين النهرين

1- الموقع الجغرافي

عرفت البلاد ما بين بادية الشام ومرتفعات إيران منخفض صحراوي يعبره نهرا دجلة والفرات، دجلة والفرات فيحولانه الى سهل خصيب. وهذا السهل الذي نسميه اليوم العراق، أقدم الحضارات في العالم.

ويتعرض جنوب ما بين النهرين الفيضانات سنوية أقل انتظاماً، ولكنها أشد خطرًا من فيضانات النيل. وكان أحدها سببا فيما روته التوراة عن (نوح) وفلكه أما في الشمال، حيث تأثير النهرين أقل، فقد امتدت بلاد «أشور». ومعظم ارضها هضاب صخرية وجبال قاحلة لا منفذ لها على الخارج: ففرضت قسوة الطبيعة على السكان نمطًا قاسيًا من العيش، أدى الى تبلور الذهنية العسكرية القاسية.

والغرب بالنسبة للفرات اليوم هو بلاد سوريا، وسماها الأقدمون أمورو». وكانت مصدر معظم الهجرات السامية نحو بلاد الر افدين» (دجلة والفرات). والى الجنوب الشرقي من العراق الحالي بلاد عيلام. اشتهرت فيها مدينة سوسه) (Suse)، دون ان تكون جزءاً اساسياً من بلاد ما بين النهرين». بل اضحت فيما بعد ركناً هاماً بالنسبة الى حضارة (فارس). كما ان هضاب إيران بدورها قد صدرت نحو الر افدين (عناصر آريه) أو «هندية اوروبية كالسومريين، الذين قاموا بدور المؤسس لحضارات ما بين النهرين .

2- التمركز والتنظيم

تركزت الحياة في البدء عند الطرف الجنوبي من البلاد. وهنالك أنشأ السومريون

أقدم حضارات العالم. ثم تتالت هجرات القبائل السامية من بلاد أمورو.

وشادت وأحاده ثم «بابل». وبعد البابليين سيطر الاشوريون، و اتخذوا حضارات ما بين النهرين

أشور» ثم نينوى) عاصمة لهم . واخيراً انتقلت مقاليد الامور الى «الكلدانيين» فأعادوا «بابل» الى سابق مجدها فتكون خمس دول قد تعاقبت على بلاد ما بين النهرين.

- ✓ دول ما بين النهرين وعددها خمس، اولاها «آرية والباقية سامية».

أ-السومريون:

* أصلهم السومريون اغراب عن بلاد ما بين النهرين. يدلنا على ذلك لباسهم الصوفي وصناعتهم للنحاس لان الصوف لا يطاق في بلاد حارة كالعراق. والمعادن لا مناجم لها فيه. فقد قدم «السومريون، إذا من مناطق جبلية عالية وغنية بالنحاس.

* تاريخهم ينقسم تاريخ السومريين الى مرحلتين.

عهد المدن المستقلة، والمدينة كناية عن دولة . وثانيهما عهد المملكة المتحدة. وفي المرحلة الاولى، احتفظت كل مدينة باستقلالها، في ظل ملك كاهن اسمه پاتيزي (Patisie) وقادها الاستقلال الى التنافس والعداء. تحاول كل منها ان تفرض سيطرتها. وأشهر العداء ما قام بين مدينتي الاغاش» و «أوما». و انتهى بانتصار الأولى. وفي المرحلة الثانية فيض لمدينة «أوما) ملك قوي (اسمه « لوغال زاجيزي » و لوغال» معناها الملك). فثأر لها وتابع زحفه المدن الأخرى فوحدها في دولة واحدة عاصمتها «أورك». وفاخر هذا الملك ببسط نفوذه من البحر الأدنى الخليج العربي) الى البحر الاعلى (المتوسط). ولكن هذه المملكة لم تُعَمّر أكثر من ربع قرن. وسقطت على يد و الأكاديين عام 2725 ق. م.

ب-الأكاديون:

*** اصلهم: راق لبعض القبائل الضاربة في بلاد «أمورو» خصب سهول الر افدين. وشاقها ان تتنعم برقي الحضارة السومرية. فهاجرت اليها وبنت مدينة كيش على الفرات.**

*** تاريخهم تكاثر عدد الساميين في موطنهم الجديد. وقام زعيمهم ا سرجون يجمع كلمتهم. وشاد عاصمة جديدة دعاها وأكاد». ثم حارب السومريين فعليهم فَعُرفت بلاده إذاك باسم «أَكَادِيه». ولُقب باسم سرجون الأكادي». هكذا حل العنصر السامي محل العنصر الآري) أو الهندي الاوروبي».**

وواصل «معرجون فتوحاته فاخضع شرقي شبه الجزيرة العربية وبلاد عيلام». وبلغ الغرب، واغسل سلاحه بمياه المتوسط، ولكن الثورات تآزرت عليه فأضعفت دولته. و افادت من ضعفها فلول السومريين). ولم ينهض الدولة الأكادية من كبوتها إلا (نارام سين حفيد «سرجون) . وَرَدَّ الخطر الخارجي الآتي من إيران ولكن الاستقرار لم يدم، فعادت الثورات. و اتاحت لبعض المدن السومرية، المستكينة على مضض، ان تستعيد قوتها وازدهارها، مثل مدينتي «لا غاش» و «أُور».

ج- البابليون :

*** أصلهم ظلت بلاد أمورو» مصدر الهجرات السامية المتعاقبة. مما حدا، الأكاديين، في ساعات ضعفهم ان يرحبوا بها ويشجعوها حتى لا يعود العنصر السومري الى الطغيان.**

*** تاريخهم: استقر النازحون الجدد في «بابل» (بيت الإله). و اتخذوها عاصمة لهم. ولم يوطّد سلطتهم فيها إلا «حمورابي) (من 1710 ق.م الى 1670 ق. م. فأحسن التنظيم وثبت الدولة على ركائز متينة. ثم اهتم بالفتوح فاخضع بلاد وأشور» ثم بلاد «أمورو ». وشجع الهجرات السامية نحو جنوب البلاد لتحل محل السومريين. ولكن موته عَجَلَ في انهيار الدولة، لا سيما وان خطر الحوثيين»، الآتين من آسية الصغرى، بدأ يُهدد بلاد ما بين النهرين**

د-الاشوريون:

*** أصلهم قطن شمالي بلاد الر افدين مزيج من شعوب، غلب فيها العنصر السامي؛ هم الأشوريون).**

*** تاريخهم داخل دولة حمورابي بالذات، كانت العناصر الأشورية تهيئ نفسها لدور فعال في تاريخ البلاد. فأنشأ أحدهم «سَرْجُون الأول» (غير سرجون (الأكادي) منذ عام ١٧٧٥ ق.م. دولة اقتصرت في البدء**

على منطقتي كردستان» و «الموصل الحاليتين. وأعلنت مدينة «أشور» ثم مدينة نينوى) عاصمة لهذه الدولة. لكن الغزوات الحثية، التي قضت على بابل اجتاحت بنفس الوقت دولة «أشور» الفتية. وما انحسر الخطر الحتي حتى قام (تَغلاتُّ فَلاصر) الأول يعيد تنظيم الدولة الاشورية. وأعدها حتى استطاعت ايام وأشورنامربال » ، ان تنتقل الى مرحلة الفتوح، وبفضل تفوقها العسكري ، استطاعت احتلال آسيه الصغرى ، وفينيقيا ، وفلسطين ، ومصر

هـ- الكلدانيون:

*** أصلهم قبائل سامية نزحت عن بلاد أمورو، حتى أواسط العراق. وهنالك عُرِفَت باسم «الكَلْدُو»، واليها انتسب الكَلدانيون».**

*** تاريخهم تكاثر الكلدانيون في بابل. وعمد الاشوريون الى تعيين أحدهم حاكمًا على هذه المدينة. فأعد حاكم بابل الكلداني ابنه لجمع الكلدانيين تحت سيطرته. وفي نفس الوقت، كانت دولة الميديين، في إيران تستكمل اسباب قوتها وبدأت تفكر بالتوسع. فتواطأ الكلدانيين معها. وَوَجَهَا ضربة قاصمة الى نينوى عاصمة «الأشوريين فسقطت عام 612 ق. م. هكذا قامت دولة الكلدانيين على انقاض دولة «» الاشوريين). وورثت عنها السيطرة على البلدان المجاورة، أي سوريا وفلسطين وفينيقيا، ومصر احيانا وأعاد الكلدانيون الى «بابل» مجدها الغابر وازدهت ايام نبوخذ نصر». ولكن دولة الكلدانيين هذي لم تُعمر قرنا، ففي**

عام ٥٣٩ ق. م. ضمها، قوروش» الفارسي الى دولته وبزوال الدولة الكلدانية، فقدت بلاد ما بين النهرين استقلالها ودخلت في مرحلة انحطاط. وانهارت حضاراتها، وان كان تأثيرها لا يزال مستمراً حتى اليوم.

3-الديانة والفنون

أ-الديانة:

شاد السومريون اول حضارة في بلاد ما بين النهرين». وتركوا تراثا فنيا وفكريا ودينيا، اقتبسته عنهم الشعوب السامية التي خلفتهم. وتجاوز تأثيرهم بلاد الرافدين الى منطقة المتوسط. والقبائل السامية ، الضاربة في بلاد أمورو، أو غيرها ممن تعاطت التجارة معهم، قد نقلت الكثير من هذه التأثيرات الى بلاد مصر. ورجعت بالتأثيرات المصرية.

المعتقدات ككل شعب بدائي، قدس السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها. ثم طوروا معتقداتهم، فعبدوا القوى الكامنة وراءها، كحرارة الشمس في بلاد حارة كالعراق، أو قوة المياه عند فيضانها أو الطوفان أحيانًا (اسطورة «جلجميش» (Gilgamesh)، وعنها اخذت قصة الطوفان ايام (نوح). ثم جعلوا الآلهة على صورة البشر؛ يتصفون بالقوة والضعف، لهم الحسنات وفيهم السيئات. وكان طبيعيا، في بلاد خصبة كالعراق، أن يُوله الخصب في الدرجة الاولى. أليس هو السبب في اجتذاب السكان؟ ... وهنا تبرز ظاهرة رأيناها عند المصريين، ألا وهي تعدد الآلهة بتعدد المدن والمجموعات السكنية. لكل مدينة إله، لا تكتفي بعبادته بل تسعى لفرضه على سائر المدن، وما اكثرها في بلاد السومرية. وتنتهي الصدارة الى إله المدينة المنتصرة. وتندر الحالات التي تعبد فيها مدينة إله مدينة اخرى تلقائيا. واذا عبدته لا تبرزه مطلقاً في المرتبة الاولى هكذا البابليون، بعد ان اخضعوا البلاد احتفظوا بآلهة السومريين» و «الأكاديين معا، ولكنهم جعلوا «مردوخ » إله بابل عاصمتهم في مقدمتها جميعًا ومرجع ذلك بطبيعة الحال الى نفوذ «حمورابي ». فنفوذ الإله اذا هو نفوذ الدولة. وليس و مردوخ» بالغريب عن آلهة السومريين والاكاديين. فهو ابن «إيا» إله المياه الجوفية. وتختصر فيه صفات الآلهة جميعاً؛ لأنه خلصها من خطر احدق بها وتحلى بكل مزاياها، فكانت له المرتبة الاولى.

-ولما تمت الغلبة للأشوريين، برز في المقدمة إلههم «أشور»، وكانت الإلهة «عشتار» ملازمة له ولكن شهرة مردوخ من جهة، والكره المكبوت للأشوريين من جهة ثانية، جعلا بعض المناطق تبقى على ولائها «المردوخ ». وإن يكن أشور» قد فرض عليها. ومع دولة الكلدانيين برز الإله «نبو» ابن مردوخ».

- تعدد الآلهة

تعددت الآلهة بتعدد المدن والدويلات وحصر السومريون آلهتهم في مجموعتين: الثالوث الأول ويتألف من «آنو» إله السماء و «أنليل» إله الأرض و«إيًا»

إله المياه الجوفية. فجمعوا بذلك بين عناصر المادة الثلاثة: السائل والهواء والجماد والثالوث الثاني يتألف من شَمَش إله الشمس و «سين» إله وأَدَده الذي القمر ويجمع كل عناصر الطبيعة وأدد هذا قد ادخله الاكاديون» معهم من بلاد أمورو». واضافت كل دولة إلها خاصا بها مثل (مردوخ » و « أشور» و « عشتار» و « نبو» .

وفي مرتبة ثانية، كرم سكان ما بين النهرين «أنصاف الآلهة» و«العمالقة مثل جلجميش» السومري. أما الاشوريون فقد اعتقدوا بوجود الروح» اروخا بالاشورية) وقسموها الى فئتين: روح الخير» و «روح الشر». و اقاموا لروح الخير» انصابًا على ابواب المعابد، لتمنع سيئ النوايا من الولوج اليها. وعن الاشوريين اخذ الفرس هذا الاعتقاد. والاعتقاد بسلطان السحر» و «الشياطين قديم في بلاد الرافدين.

وقالوا بان ثمة صلة بين الآلهة والشياطين. فقد يدفع الإله شيطانا الى المضرة بالناس. لذا عُني البابليون بالتنجيم» و «العرافة واعتمدوا الطلاسم لاعتقادهم بأنها الدواء الانجع للتخلص من سلطة الشيطان.

- الحياة الآخرة اعتقد السومريون بان النفس لا تموت. ولكنهم لم يتطرقوا الموضوع «الحساب» كالمصريين. والبدن إذا فارقتها الروح تذهب الى اصقاع لا ترجع منها. وهنالك تستمر في حياة بائسة، فقيرة الى الأمل. لدى المصريين تدخل عالم أوزيريس». واهتموا بحفظ الجسد دون ان يتوصلوا الى التحنيط فأودعوا مع الميت تمثالا شديد الشبه به (يقوم مكان المومياء المصرية. وحرص السومريون على ان يضعوا مع الميت كل ما يعوزه في حياته الثانية، مثل مصاغه ومقتنياته الثمينة وشاعت هذه المعتقدات لدى كل من الأكاديين، والبابليين، والاشوريين، والكلدانيين. فلم يتبدل من تقاليدها شيء. لذا تعتبر دائما، بان الحضارة السومرية كانت حجر الاساس بالنسبة لديانات ما بين النهرين.

ب-الفنون:

لا يمكن الفصل بين الدين والفنون فالفن قائم على خدمة العقائد، مسخر لها ، شأنه في مصر

- النحت افتقر جنوب بلاد الر افدين الى الحجارة فجاءت انصاب وتماثيل السومريين صغيرة، عديمة الانسجام في توزيع النسب بين حجم الرأس وسائر الجسم. اما في الشمال فالبلاد صخرية والمقالح متوفرة، وفي كلا الجنوب والشمال لجأ الفنانون الى المعادن الثمينة احيانًا فغلفوا بها بعض التماثيل ليزيدوا من قيمتها.

واهتم الفنان بابراز معالم الوجه وتقاسيمه فأنى التمثال مطابقا لأوصاف صاحبه وتلك ضرورة دينية، اذ الغاية من كل تمثال ان يمثل صاحبه في المعبد، لترضى الآلهة عن صُنْعِهِ المتين المتقن. وحيال تز ايد الطلب على التماثيل، لجأ صانعوها الى قوالب، فأنتجوا اعدادًا ضخمة من تماثيل الآجر، بأنموذج واحد ساعتئذ قل الاهتمام بالتفاصيل. فخرج النحت عن المقومات الفنية. وبرع السومريون بالحفر، والتطعيم بالعاج على الواح من الحمر و اتقنوا صناعة الخزف كنتيجة حتمية لصناعة الآجر. وعنهم أخذت الشعوب السامية التي حلت محلهم فيما بعد.

واختلفت الموضوعات لدى كل من هذه الشعوب. فالشكل المحبب لدى السومريين لا يظهر في التماثيل البابلية. وجسد الاشوريون في نماذجهم كل ما يمثل القوة ، كالأسد والثيران المجنحة ، و (اللبؤة الجريح » خير مثال على هذا حتى ان الملك يمثلونه دائماً اثناء الحرب أو الصيد، ويُبرز فنانوهم تفاصيل الوجه والعضلات المفتولة لدلالتها على القوة ، بينما يسترون بقية الجسم برداء فضفاض. ومن هذه الموضوعات الاشورية قبس الفرس فيما بعد.

- الرسم لم يبرع سكان ما بين النهرين بالرسم بقدر ما برعوا بالنحت والنقش. فقد يقتصر الرسم على تلوين النقوش. وقصروا كالمصريين في حل مسألة الابعاد. فلم يميزوا بين الصف الامامي وما خلفه. والرجل الأهم يبدو أكبر من غيره كذلك لم يميزوا بين وقفة مواجهة ووقفة جانبية. وهذا باد على شكل العين التي تظهر كلها في الوقفة الجانبية، كما لو كانت مواجهة للناظر اليها . ثم ان قلة النماذج وغموضها لا تسمح بتكوين فكرة عن هذا الفن لديهم.

- فن العمارة اعتمد البناء على الطين المجفف أو اللين وكلاهما أصل صناعة الآخر. فَشَوَوا الحجارة في الافران حتى غدت قاسية ولكنها على قساوتها لا تصمد صمود الحجر. وهذا ما عرض المقابر والمعابد والقصور للإندثار. وزاد في ضياع آثارها الفيضانات المتعاقبة وكلما تهدم بنيان عمدوا الى البناء فوق انقاضه. فترا كمت الانقاض وتحولت الى تلول. وفي هذه التلول بالذات عُثر على آثار حضارات ما بين النهرين.

- القصور واشهرها قصر خور سا باد» في نينوى عاصمة الاشوريين، وقصور «بابل» الكلدانية و «بابل» الشهيرة هي عاصمة الكلدانيين لا عاصمة (حمورابي وان كانت المدينة نفسها. فالكلدانيون زادوا في رونقها. فعادت اليها شهرتها السابقة بعد ان طَمَسَها الحكم الاشوري فترة وأضحت في النهاية مضرب المثل في بلاد الشرق. وقد اقيمت على نهر الفرات، يحيط بها صفان من الاسوار منافذها على الخارج ماية بو ابة من القُلُز. شوارعها مستقيمة. دُوْرُهَا غنية متعددة الطبقات جنائنها غناء. و أبرز ما فيها قصر نبوخذ نصّر» و «برج بابل بجنائنه ١ المعلقة. أما القصر فقد بلغت مساحته عشرة كيلومترات مربعة. طول قاعة العرش

فيه ستون مترا وعرضها سبعة عشر مترا، مطلية كلها بالأبيض. و«برج بابل» هو في الأصل زقورة تتوسط الجنائن المعلقة. على قمتها معبد الإله «نبو» ابن مردوخ » و«الجنائن المعلقة تأخذ شكل تلة في ادناها اعمدة شديدة الضخامة، اعمدة فارغة أصلا ومُعبأة تر اباً ، تحمل من فوقها قناطر. وهذه القناطر تحمل مُدرجات مغروسة تتخللها ادراج عديدة يسلكها المتنزهون. والبنيان جملة متين متماسك، بفضل حجارة الطين والآجر المثبتة في الاسفلت. وما زرع في هذه المدرجات من اشجار وسواها، أعطى صورة الجنائن المعلقة» الشهيرة في التاريخ.

- الابنية الدينية: وهي كثيرة منها المعابد ومنها المقابر.

وعرفت المعابد باسم «الزقورة». أقدمها ما بناه السومريون، واشهرها برج بابل» حيث عُبد الإله «نبو». وتصميم الزقورة في الأصل من خمس طبقات متدرجة يعلوها المعبد ليكون قريباً من السماء فيسهل الاتصال بالآلهة. أما الاشوريون فقد جعلوا الزقورة من سبع طبقات، والتفسير العملي لجعل المعبد في مكان مرتفع أنه كان بمثابة مرصد تر اقب منه الكو اكب والنجوم. نظرا لما لعلم الفلك من اهمية وتأثير في الحياة اليومية والدينية. وللوصول الى الطبقات العليا من الزقورة، أقيم درج ضخم مواجه، يلتقي بدرجين جانبيين عند الطبقة الثانية من الزقورة». أما الاشوريون فقد اتبعوا في الوصول إلى اعلاها، طريقة، نادرا ما استعملت، اقامة لولبي يلتف حولها. وهي درج وكانت المعابد والزقورات على قسط ضخم من الغنى. فتتلقى يومياً مئات الاضاحي والتقادم. ففي وأرك، مثلا، كان نصيب الإله «آنو» يوميا: ستين خروفًا ، ومائة وأربعين كيلا من الحنطة في أوان من الفضة والذهب .

أما المقابر فكانت تحت الارض تحتوي بالإضافة الى جثة الميت، على كل ما هو بحاجة اليه كتمثال شديد الشبه به ليكسب استمرار رضى الآلهة، و آنية ومقتنيات ثمينة.

كذلك اختلفت الابنية الدينية في بلاد ما بين النهرين عن مثيلاتها في حوض النيل، فائت اقل ضخامة ورونقا ومرد ذلك إلى اعتبارات عدة، لعل اهمها الفقر الى الحجر القاسي والشواهق الصخرية. فالآجر، مهما قا، لا يصمد صمود الحجر، ثم ان الفيضانات المتعاقبة قضت على الكثير من المعالم الاثرية. فاضطر المنقبون ان يحفروا في التلول، ويعيدوا ترميم الابنية القديمة. بينما في مصر قد سلم العديد من هذه الآثار لان المناخ الجاف في وادي النيل قد ساعد على ذلك.

4- الفكر والعلوم

أ-الفكر:

خلفت شعوب ما بين النهرين الكثير من الآثار الفكرية وحفظ معظمها في مكتبة أشوربانيبال وتقدموا في العلوم. فتركوا منجزات لا نزال نقرها في حياتنا اليومية. وعبرت عن آدابها بالعديد من الاساطير والملاحم.

الكتابة المسمارية أحس «السومريون بالحاجة الى تدوين افكارهم. فوضعوا أُسس كتابة أولية اخذها عنهم الاكاديون، وطوروها فأضحت أيسر استعمالا، وأوفى أداء وعرفت باسم الكتابة المسمارية.

والناظر إلى هذه الكتابة لا يرى صُوراً أو أحرفًا بل اشكالا لأن التصوير صعب على ألواح الدلغان فلجأوا الى الاصطلاح. وهذا الاصطلاح يدل على شيء، أو يدل على عمل أو فكرة، أو يدل على مقطع صوتي. فتشتبك المعاني كما يحصل في الكتابة الهيروغليفية. وبدأت الكتابة لدى السومريين من اليمين الى الشمال، كما تكتب العربية. ومن فوق الى تحت، كما تكتب اللغة الصينية. ولكن التطور الذي لحقها، جعلها تكتب أفقيًا ومن الشمال الى اليمين ، حتى لا يُمحى تحت يد الكاتب ما انطبع على الواح الدلغان. وتسميتها بالمسمارية عائد الى اعتماد الطبع بآلة دقيقة تشبه المسمار، على الواح طرية من الدلغان. ثم تجفف في الشمس، أو تشوى على النار حتى تقسو. وقد تبجح الملك (أشوربانيبال) بانه ترك مكتبة ضخمة. احتوت على آلاف

الالواح الدلغانية المحفوظة ضمن غلافات من الدلغان ايضا . واذا تكلمنا عن الرسائل التي كان يرسلها حمورابي إلى موظفيه، فعلى هذا الشكل يجب ان تتمثل الرسائل.

ب-الأدب:

لا مجال للكلام عن نشأة الادب في بلاد ما بين النهرين وتطوره. فما بأصله الى السومريين، قد وُجد مخطوطا بالكتابة المسمارية، وباللغة يرجع الاشورية، على الواح (دلغانية) في مكتبة (أشوربانيبال). وهذا دليل على انه لم يطرأ عليه تعديل. وإن يكن قد أضيف اليه، فليس ثمة ادب قديم وأدب حديث، كما اعتدنا ان نصنف الآداب اليوم. فكل الآثار الادبية خليط. كل دولة تأخذ عن سابقتها، وكل شعب يأخذ عن سلفه، دونما اهتمام بالتطوير. وتشعبت الموضوعات، فتناولت القضايا الدينية والفكرية. وتناولت الرثاء بشكل أناشيد عرفناها عند العبرانيين فيما بعد. أما الادب الوجداني الدنيوي فقد كان نصيبه القليل.

ج-التشريع:

لم يجمع السومريون والأكاديون شرائعهم في قانون مدون. والفضل في تدوين العلوم، هذا القانون يعود بشكل خاص الى حمورابي. وقد اندفع الملك البابلي في عمله هذا من اقتناعه بمهمته كملك؛ فهو يمثل الاله مردوخ على الارض،

وهو بالتالي مسؤول عن تنظيم البلاد و إقامة العدل. فجمع 282 مادة تشريعية، اقتبسها من التقاليد والقوانين المعمول بها حتى ايامه. ولكنه جعلها أكثر ملاءمة لمجتمعه وعصره. والمبدأ الاساسي المعتمد في قانون حمورابي هو: الطبقية والمعاملة بالمثل، أو ما يُسمّى بمبدأ السن بالسن والعين بالعين اذا كان المتقاضيان من طبقة واحدة والتفاوت الطبقي بين «احرار» و «مساكين» وعبيد) لا يعطي امتيازات عفو فالقصاص واجب، و انما على درجات، وحسب المركز الاجتماعي. (انظروتجاوب هذا القانون مع المجتمع البابلي اتاح له امكانية الاستمرار. ولما تسلمت الحكم دولة الاشوريين تبنت قانون حمورابي ومبادئه. انما الاشوريون كانوا أقسى وأدق من البابليين في تطبيقه، لان عقليتهم القاسية يلائمها التشدد والعنف. ولكن القسوة في الاحكام، ضيعت القيمة الانسانية كانت لهذا القانون. فالإعدام غرقا والشنق أصبحا سُنَّةٌ لديهم. وكذلك الأعضاء أو ثمل الاعين الى ما هنالك من ضروب الوحشية.

د-التقويم:

نتج عن الاهتمام بالتنجيم معرفتهم للتقويم والتنجيم بدوره كان قائماً لضرورات دينية.

يبدأ العام لدى السومريين في الربيع، أي في فترة انتعاش الطبيعة. فيقيمون لهذا العيد احتفالات ضخمة وتنقسم السنة الى فصلين متعادلين؛ أحدهما يبدأ في نيسان والثاني في (تشريت) (تشرين الأول). وعن السومريين أخذ الاكاديون واستقرت اشهر السنة لدى البابليين بالنسبة لتقويمنا الشمسي الحالي كما يلي:

- نيسانو :(Nisannu) نيسان / أبريل.
- أيارو :(Ayyaru) أيار/ مايو.
- سيمانو :(Simanu) حزيران / يونيو.
- دوزوزو :(Du'uzu) تموز/ يوليو.
- أبو :(Abu) آب / أغسطس.
- أيلولو :(Ululu) أيلول / سبتمبر.

- تشريتو :(Tashritu) تشرين الأول / أكتوبر.
- أراكسمنا :(Arahsamna) تشرين الثاني / نوفمبر.
- كسليمو :(Kislimu) كانون الأول / ديسمبر.
- طبيتو :(Tebetu) كانون الثاني / يناير.
- شباتو :(Shabatu) شباط / فبراير.
- أدارو :(Adaru) آذار/ مارس.

كانت السنة تبدأ في الربيع (نيسان) وتعتمد على رصد القمر، مع إضافة شهر كبيس (أدارو الثاني) عند الحاجة لتتوافق مع السنة الشمسية.

و افتقر هذا التقويم الى الدقة فالشهر القمري المعتمد تختلف مدته 29 و 30يوما . وهذا يعطي مجموع 354 يوما في السنة القمرية. فينتج فارق قدره 11 يوما وربع اليوم بين السنة القمرية والسنة الشمسية. وهذا الفارق يزداد باستمرار بين نهاية العام القمري وبداية السنة في فصل الربيع اواسط نيسان فشعر البابليون بضرورة رد الحساب القمري الى الحساب الشمسي حتى تنتظم اعياد الربيع ، وتَحِلَّ في مواعيدها الدقيقة، فاصطلحوا على زيادة سبعة اشهر كل تسعة عشر عاما فيستقيم التقويم. وهذه الفوضى الناجمة عن الفارق السنوي تضر بمصالح المرابين.

وهؤلاء يهمهم قبل كل شيء ان ينتظم حساب الفائدة، وتاريخ استحقاق الدين. لذا اصطلح المرابون والتجار ورجال الاعمال فيما بينهم على قسمة الشهر إلى سنة اسابيع، مدة كل اسبوع خمسة ايام. فأصبح الشهر التجاري ثلاثين يوماً، والسنة التجارية 360يوماً غير قابلة للتعديل. وهذا الاساس لما نسميه اليوم السنة التجارية. واليوم لدى سكان ما بين النهرين يبدأ عند الغروب. ويُقسم الى اثنتي عشرة فترة، مدة كل فترة ساعتان وقسموا الساعة الى ستين دقيقة، والدقيقة الى ستين ثانية.

أما التاريخ فلا يبدأ مع حدث رئيسي معين، كميلاد المسيح أو هجرة الرسول. بل يتبدل، كما لدى المصريين، مع تولي الملك، أو حين انتصار على عدو خطر. وقد يبدأ ايضا مع تدشين معبد.

هـ-الأعداد والمقاييس:

لم يعرف السومريون الارقام، بل رمزوا الى العدد (واحد) بهذا الشكل المسماري (٢) وكرروه من الواحد الى التسعة بقدر ما يريدون ؛ حتى اذا وصلوا الى (العشرة) مثلوها بشكل مسماري آخر ((يمتاز عن الواحد» بأنه باتجاه آخر. وغدا النظام العددي مع الاكاديين اثني عشريا» (١٢) لسهولة قسمته الى اثنين وثلاثة واربعة وستة، باستثناء الخمسة والبابليون بعد الاكاديين جعلوه ستينيا (٦٠) ليصبح اكثر قابلية للقسمة. لذلك عندما ارادوا ان يدونوا الاعداد بالعشرات جعلوا الرمز المسماري ست مرات. فاذا وصلوا إلى الستين عادوا يكررون الشكل المسماري الذي يرمز الى الواحد. ويظهر اعتماد النظام الستيني في تقسيم الساعة الى ستين دقيقة،والدقيقة الى ستين ثانية وكذلك المثقال يساوي ستين وزنة، والوزنة ستين حبَّةٌ ، و الشكلُو» (١٨٠) حبَّة . على ان النظام الستيني جاء مكملا للنظام الاثني عشري، لا ناقضاً له كقسمة اليوم الى اثنتي عشرة فترة (مدة كل منها ساعتان)، والاعداد الى دزينات (١٢) وحدة)، وكل خمس دزينات تساوي العدد ستين. ونحن اليوم اذ نشتري بالرطل (١٢) أُوقية) انما نطبق هذا النظام. وجهلت شعوب ما بين النهرين الرقم صفر.. ولكن الحساب تطور على يدها تطوراً مدهشاً. فقد وضعت جداول للضرب (ولم يكن هذا شأن المصريين). وطورت الجبر حتى عرفت المعادلات الجبرية.

و-الطب:

لم يستقل الطب عن الدين كعلم قائم بذاته. فالكهنة هم الأطباء، بتشددون في الحفاظ على مهنتهم. كانت معلوماتهم في البدء أولية . وما يعجزون عنه علميا، يضعون له تفاسير وادوية روحية. فالمريض عادة هو مرتكب خطيئة، تخلّى عنه الإله، ودخل الشيطان جسمه و أقام يعذبه. فَيُسْتَدْعَى الكاهن لشفائه. ويصف له عقاقير مُرَّة المذاق، ليتضايق منها الشيطان فيغادر جسد المريض.

والبابليون، فيما بعد، لم يكتفوا بهذا التفسير إلا حين تعييهم الحيلة. وقد بذلوا مجهودًا كبيرًا لتخليص الطب من هذه الذهنية، حتى اضحت وسائلهم شبه علمية وفي قانون حمورابي، مواد تنظم مهنة الطب. وتحدد الأجر الواجب تقاضيه من الحر والمسكين والعبد. وثمة مواد اخرى تحم المهنة وتحافظ على مستواها، فإذا مات العليل قطعت يد الطبيب». ساعتئذ لا يتجرأ الدعي على تعاطي هذه المهنة.

وكلا الطب والجراحة هما من اختصاص الإلهة «بو» التي لا تخطئ. فمن يخطئ هو الوسيط البشري، اي الطبيب. وهذا ما يدعو الجراحين الى الامتناع عن كل عملية غير مؤكدة النجاح، لان العقاب ينتظرهم. ونتج عن ذلك بطء التقدم في الجراحة. ولم يكن هذا شأن الطب المصري، الذي تطور بسرعة نتيجة التشريح والتحنيط.

أما الاشوريون، وقد قيض لبلاد ما بين النهرين أن تحتك بأرض النيل في عهدهم، فقد اقتبسوا ما رأوه ناجعا من الوسائل العلمية المصرية. وشخصوا المرض ليصفوا له العلاج المناسب. وإذا اعياهم الأمر، لا يستحون بالإقرار بالأمر. وميزوا بين الكاهن والطبيب وفصلوا بين المفهومين الديني والعلمي. وغدا للأطباء مهنة مستقلة، وقربهم نظرا للحاجة إليهم.

حضارة ام حضارات؟ ان المطلع على معالم الحضارة في بلاد ما بين النهرين يصطدم دائما بهذا

السؤال: هل كان ثمة حضارة واحدة ام حضارات متعاقبة، تستند اللاحقة منها على السابقة؟ ذلك ان المعالم غير واضحة بين ما هو سومري (هندي -اوروبي) وما هو سامي اكادي او بابلي او اشوري او كلداني).

فالسومريون قد قاموا بدور المؤسس، ولكن الروح السامية تمكنت. الطغيان في النهاية. فيصعب اذا التحديد الى اي دولة بالذات: الفضل الاكبر والاعمق في بروز العلم والفكر، ولنا في ادب ما بين النهرين مثال آخر، حيث لا تمييز بين قديم وحديث، بل مادة واحدة تناقلتها جميع شعوب ما بين النهرين.

ولا بد في النهاية من التنويه بدور الاتصال الفكري والعلمي حصل بين مصر وما بين النهرين، ويختلف الباحثون حول زمان حصوله، ولكن ما لا خلاف عليه ان التيارات التجارية اولا ثم الغزوات السامية قد مثلت دورا اساسيا في هذا التبادل.

ز-المجتمع والجيش:

كان السومريون والأكاديون شعباً من المزارعين وتوفرت لهم بعض اليد العاملة من العبيد، و انصرف الميسورون منهم للتجارة، نظرا لموقع البلاد، وتعدد الاقنية كخطوط مواصلات وبعد ان اتسعت الفتوحات في الخارج، برزت مشاكل اجتماعية جديدة ودخلت في طاعة شعوب ما بين النهرين بلاد مجاورة وعديدة. فكان لا بد إذا من ظهور فوارق اجتماعية، تبلورت ايام البابليين. وجاء قانون حمورابي يكرس هذا التقسيم الطبقي.

* الملك: هو رأس المجتمع وصاحب السلطة الزمنية. يمثل الإله على الارض دون ان يتخذ صفة الألوهية. فسلطته الدينية غامضة ليست كالتي لفرعون مصر. تختاره الآلهة بواسطة الكهنة واستشارة الكهنة واجب عند انتقال الحكم. وهذه الاستشارة تفسح المجال للخروج على مبدأ الوراثة في العرش. فقد يتحزب الكهنة لشخص دون الآخر، مبررين ذلك بالاستجابة لمشيئة الآلهة.

- اقسام المجتمع ينقسم المجتمع الى ثلاث طبقات طبقة الاحرار أو النبلاء (إميلو) وتضم الكهنة والكتبة والموظفين. ثم طبقة المساكين وأخيرا طبقة العبيد.

- الاحرار : وقد اعتبرهم قانون حمورابي العنصر الرئيسي ، والعائلة لديهم نواة المجتمع. وتأسيس العائلة يمر بنفس المراحل التي نعرفها اليوم، كالخطوبة تسبق الزواج والإنجاب غاية الزواج، وينتج عنه سلطة مطلقة للزوج أو الوالد فهو حسب القانون مالك للزوجة والاولاد، حر التصرف بهم . وحرية التصرف هذي مطلقة، تسمح للزوج ببيع زوجه وأولاده ولكن لفترة لا تتجاوز الثلاثة اعوام. ويحصل هذا عادة عند التقصير عن وفاء دين.
- المساكين (مشكينُو) : أي الفقراء، ويعيشون في فاقة لهم حقوقهم يضمنها القانون ولكن العوز احيانا يدفعهم الى بيع انفسهم ، فينحدرون الى طبقة العبيد . والمساكين بالكاد يقومون بأود أنفسهم، يكتفون بالخضار والثمر، ونادرا اللحوم بيوتهم من اللين والغزار. لا فراغ في حياتهم اليومية، بل عمل مستمر في الحقول والري والعناية بالأقنية معرضون للسخرة من قبل المتنفذين الاحرار. يفتقر معظمهم الى الملكية. فيعتنون عادة بأراضي الملك أو المعبد أو الاقطاعي. وضعهم اجمالا يذكر بوضع الفلاح المصري
- الطبقة الدنيا والأخيرة ملك لأسيادهم لا حرية م يُميزون بإشارة أو بقلادة عليها اسم صاحبهم. وصلوا الى هذا الوضع نتيجة لاحد أمرين: بعضهم قد وُلِدَ عبدا، والبعض الآخر استعبد عن طريق الأسر أو البيع. ولكنهم على كل حال يفقدون صفتهم الانسانية ليعاملوا كالسلعة أو كالحيوان.

ولدى قيام الدولة الاشورية، تكاثر عدد العبيد نتيجة للحروب المستديمة. وتشدد القانون الاشوري في معاملتهم فزادهم ارهاقا. وتوزع العبيد بين الملك والحاشية والمعابد والتجار. حتى ان بعض الميسورين من الاحرار الفلاحين كانوا يقتنون العبيد. وقد انيط بهم تنفيذ الاعمال الشاقة والمهن الوضيعة دون مقابل. وتجدر الاشارة الى سبي بابل عام ٥٨٧ ق. م. واستعباد يهود اورشليم على يد نبوخذ نصر، الكلداني. - الكهنة تميز الكهنة بسلطة كبيرة منذ ايام السومريين. فالملك السومري هو الكاهن في الوقت ذاته (پاتيزي) (Patetic) راجع تاريخ السومريين)، ومع الفتوح طغت الصبغة الزمنية دون ان تمحى الصبغة الروحية. واخذت سلطة رجال الدين تتضاعف، نتيجة لاعتقاد الناس بالسحر والتنجيم والطلاسم والرقى واصبحت استشارتهم واجبًا في حال انتقال الحكم من السلف الى الخلف. و انما هذا لم يمنع الاعتراف بالملك كاهنا اعلى. فهو الذي يمثل الإله على الأرض، ويترأس المراسم الدينية والاحتفالات، دون ان تكون له صفة إلهية. وتضم حاشيته عددًا كبيرًا من كهنة البلاط. وفي مرتبة أدنى كهنة المعابد ولكنهم ككهنة البلاط يتمتعون بنفوذ معنوي ومادي معنوي لأنهم ربطوا بين الطب والدين، و أنيط تفسير مشيئة الآلهة في اختيار وريث العرش، وفي تأدية النصح إذا كانت الظروف ملائمة للحرب. ونفوذ مادي نتيجة البحبوحة واليسر. فأجورهم عالية، وقسم كبير من التقادم والذبائح في المعابد عائد إليهم. ويُذكر خدام المعابد، الذين اثروا لحصولهم على قسم، ولو ضئيل، من هذه التقادم والذبائح.

- الكتبة والموظفون يؤخذ الكتبة من بين الكهنة، ومن بين الكتبة يؤخذ الموظفون الكبار. ومع اتساع رقعة الامبراطورية اشتدت الحاجة الى الموظفين. ونشط التراسل بين العاصمة والمقاطعات و انتشرت الكتابة المسمارية خارج بلاد الر افدين. وبلغ عدد الموظفين ايام حمورابي عشرات الآلاف. فلم يعد بالإمكان اختيارهم من بين الكهنة. أما الاشوريون فقد اختصروا المعاملات الادارية وبسطوها، لان الحكم عسكري، والمعاملات الإدارية تناط بالجيش، خاصة فيما يتعلق بجمع الضر ائب، وما ابهظها فينيقيا) كانت تدفع الضريبة خشبا).
- الجيش

لم يتطور التنظيم العسكري إلا مع الاشوريين. ولكن هذا لا ينفي وجود التنظيم قبل ذلك. فالأكاديون وصلت بهم الفتوح الى البحر المتوسط. وحمورابي اكتفى بالقليل من الفتوح، لكنه اهتم بتثبيت اقدامه في كل بلد اخضعه. أما الاشوريون ففيهم تختصر الحرب وويلاتها.

ومبررات الذهنية العسكرية لدى الاشوريين كثيرة؛ منها طبيعة بلادهم الذهنية العسكرية الجبلية القاسية، وبعدهم عن المنافذ البحرية، و انعدام حدود طبيعية تحميهم، ثم مجاورتهم لشعب قوي كالحثيين. كل هذا جعلهم في تأهب دائم، فانتهوا بأن جعلوا الحرب مهنة لهم. ولم يوفروا جهدا في سبيل تنظيم الجيش.

فإلام انتهت هذه التنظيمات؟ .

- القيادة ويرأس الجيش الملك نفسه أو قائد من قبله يدعى «تورتان». وقد يصبح القائد خطرًا على العرش إذا ضعفت شخصية الملك، أو ضعفت همته للقتال الاختصاص تعددت العناصر البشرية في هذا الجيش؛ فمنهم الاشوريون، وعليهم الاتكال. ثم المرتزقة، وأسرى الحرب، وجنود البلاد المخضعة. ويتوزع الجنود، حسب اختصاصهم، الى فرق أهمها:

- المشاة: عددهم وفير، سلاحهم القيسي والحراب والسيوف. يتقون الطعن بالخوذ والدروع. يُجهزون بقرب ينفخونها لعبور الانهاردونما حاجة الى جسور. وهذا ما يتيح السرعة في الحركة والمناورة ويعززعنصر المباغتة .

- الخيالة وهي فرقة مستحدثة لدى الاشوريين. اعتمادها على سرعة الهجوم والالتفاف تكتفي بما خَفَّ من السلاح كالقوس، حتى لا يعيقها ثقل السلاح عن سرعة الحركة.

- الهندسة وتبرز مهمتها في حرب الحصار. مجهزة بسلالم لتسلق الاسوار، وبمدَكَّات ضخمة لتحطيم ابواب القلاع والحصون. يلبس افرادها الدروع كجهازواق ، نظرًا لبطئهم في الحركة ، ولتعرضهم لو ابل من السهام والحراب. ولهذه الفرقة مهمتها في ايام السلم ايضاً. فهي التي تمهد الطرقات وتبني الجسور.

-المركبات أو ما نسميه بلغة العصر الدروع. ويجر المركبة جوادان أو ثلاثة جياد. فعاليتها في الصدام مع العدو. فهي سلاح مصمم للهجوم و اقتحام الصفوف يقف فيها جنديان، احدهما يقود والثاني يرمي وتصعب حماية هذين الجنديين، فاضيف اليهما آخران مهمتهما الحماية . البحرية اعتمد الاشوريون على الفينيقيين في انشاء اسطول حربي. فأتى على صورة المراكب الفينيقية والسفن المعدة للصدام مقدمتها دقيقة ومنخفضة. وظيفتها اختراق السفن المعادية. أما ما كان منها مخصصاً لنقل الجنود والاعتدة فله مقدمة عالية تمثل رأس حيوان.

وبفضل هذا التنظيم، وبفضل الأسلحة الحديدية (بينما اسلحة العدو اقتصرت على البرونز)، أضحى الجيش الاشوري أداةً مثلى للدمار. وقسوة الاشوريين على الشعوب المغلوبة نَفَّرَتْ العالم القديم منهم. فهم لا يتورعون عن ارتكاب الاعمال الوحشية، كأن يثقبوا شفة الملك الخصم، ليدخلوا فيها حلقة سلسلة ويجروه كالحيوان أو يجدعوا أنف الاسير، أو يبتروا أحد اعضائه. واذا تساهلوا في معاملة اعدائهم، نفوهم أو استعبدوهم أو احتفظوا بالرهائن من الملوك واولاد 6الملوك.

هكذا نفهم ان العالم القديم قد هَلَّل لسقوط نينوى (612ق.م)، والكلدانيون الذين حلوا محل الاشوريين كانوا أرق معاملة، ولكنهم لم يكونوا أقل عزيمة على الحرب.